المحاضرة السادسة : نظرية الفعل الإنساني (ابن خلدون)

مقدمة :

لما كان الفعل الإنساني هو محور الدراسات الإنسانية باعتباره جوهر الوجود الكوني، إذ أن البحث حول الإنسان قديم بقدم الكون، حيث كان الإنسان عند السفسطائيين مصدر كل شيء، لذلك يقول **برتاجوراس** : « الإنسان مقياس كل سيء، مقياس الأشياء الموجودة من حيث هي موجودة، ومقياس الأشياء الغير موجودة من حيث هي غير موجودة.» فمنذ زمن **سقراط** كانت الفلسفة تبحث في أمور السماء والكواكب، لكن سقراط حولها لدراسة الأخلاق، التي يعد الإنسان فاعلا فيها.

أولا / نظرية الفعل الإنساني عند ابن خلدون:

1- ابن خلدون

عبد الرحمن ابن خلدون (1332-1406) هو أبوزيد عبد الرحمن بن محمد بن خلدون، الحضرمي التونسي، أصله من حضرموت ولكن أجداده نزحوا إلى بلاد المغرب، أثناء الفتح الإسلامي للأندلس، ولد في تونس عام 1332م - 732هـ ، قضى العشرين سنة الأولى من عمره متعلما للعلوم الدينية، واللغوية والفلسفية والطبيعية والرياضية، كما قضى خمسة وعشرين سنة من عمره أيضا موظفا حكوميا بدول شمال إفريقيا، حيث كانت هذه الفترة فترة اضطراب سياسي، امتد هذا الاضطراب من سنة 1350م إلى عام 1374م، ثم عاش أربعا وعشرين سنة في القاهرة، معلما وقاضيا ومؤلفا، حتى وافته المنية في القاهرة عام 1406م 808هـ .[1]

2 - معنى نظرية الفعل الإنساني

نظرية الفعل الإنساني عند ابن خلدون تدل على الاحتياجات الإنسانية المستمدة من طبيعة الإنسان؛ حيث يحتاج الإنسان إلى الطعام والشراب، والملابس، والمأوى، ويمكن تسمية هذه الاحتياجات بالأساسية أو الأولية وتؤدي الرغبة في تلبية هذه الاحتياجات إلى دفع الشخص لاستخدام معرفته وتفكيره بشكل أوسع.

3 - السلطة ضرورة اجتماعية

---

1 - جاسم سلطان : **فلسفة التاريخ الفكر الاستراتيجي في فهم التاريخ**، مرجع سابق، ص 31.

إن أي اجتماع إنساني في نظر ابن خلدون، هو لغاية أساسية هي التعاون من أجل الحصول على الغذاء، ودفع ضرر الحيوانات المفترسة، لأن الإنسان في نظره ولد بحاجيات كثير وإمكانيات قليلة، حيث يتفق في ذلك مع الشعار الأرسطي القائل الإنسان مدني بالطبع، فالإنسان الفرد قدرة كل واحد منهم قاصرة على تحصيل حاجياته من الغذاء، كما أن هذه القدرة غير موفية له بمادة حياته، أي ما يحتاجه في حياته اليومية بنفسه.[2] فالإنسان غير قادر على الدفاع عن نفسه بمفرده، مما يجعله يتعاون مع غيره، لأن القوة في تعاونه مع غيره من الأفراد، يقول ابن خلدون في هذا الصدد: « وكذلك يحتاج كل واحد منهم ـ أيضا ـ في الدفاع عن نفسه إلى الاستعانة بأبناء جنسه»[3].

ويقول أيضا : «فالواحد من البشر لا تقاوم قدرته واحد من الحيوانات العجم سيما المفترسة، فهو عاجز عن مدافعتها وحده بالجملة، فلابد في ذلك كله من التعاون عليه بأبناء جنسه، وما لم يكن له ضد التعاون لا يحصل قوت ولا غذاء ولا تتم حياته... فإن هذا الاجتماع ضرورة للنوع الإنساني وإلا لم يكتمل وجودهم، وما أراده الله من اعتمار العالم بهم، واستخلافه إياهم، وهذا هو معنى العمران الذي جعلناه موضوعا لهذا العالم.»[4]

إن الاجتماع كضرورة يعني تعمير الأرض، وخلافة الله في الأرض، من أجل النهوض بمسؤولية الخلافة، وهذا ما جعل السلطة ضرورة اجتماعية، أي تقتضيها الحياة الاجتماعية في كل علاقات الأفراد فيما بينهم، ولأجل ذلك كله لابد من وازع يدفع بعضهم عن بعض، لما في ذلك من طبيعة حيوانية، وطبيعة فطرية تحمل في ثناياها عدوان وظلم. فالوازع إذن هو الغلبة والسلطان واليد القاهرة، التي تحد من السلطة القهرية لكل فرد، وهذا ما نسميه بالملك. إذن النتيجة التي يمكن أن نخلص إليها هي أن السلطة نابعة من الحياة الاجتماعية، مما يجعل الإنسان كائن اجتماعي بالطبع. [5]

4 ـ المجتمع البدوي والمجتمع الحضري

---

[2] ـ ابن خلدون : **المقدمة** ، ج1، مرجع سابق، ص 340.

[3] ـ المرجع نفسه، ص 340.

[4] - المرجع نفسه، ص ص 340 - 341.

[5] ـ ابن خلدون : **المقدمة** ، ج1، مرجع سابق، ص 342.

يرى ابن خلدون أن البدو أصل للمدن والحضر ، وهو سابق عليهما، وأن البادية أصل العمران، والأمصار مدد لها، فأهل البدو أقرب إلى الخير من أهل الحضر، وأهل البدو أقرب إلى الشجاعة من أهل الحضر، فالعصبية في البدو أشد من وقوعها في الحضر، مما يجعل تناصرهم أقوى. إن أهل البدو أقدر على التغلب وانتزاع ما في أيدي سواهم من الأمم. وتبدل أحوال الحضر إنما يعود إلى تغير الأحوال الاقتصادية والاجتماعية وتطورها، وتطور العامل الصناعي خاصة السلاح.

إن الشجاعة عند أهل البدو هي ما جعلهم يتغلبون على أهل الحضر، فالعصبية عامل أساسي يتحكم في البداوة، لأن العصبية ظاهرة اجتماعية خالصة، والحياة الاجتماعية لا يستقيم حالها إلا بها، مما جعلها تدعوا إليها وتقتضيها.

قد يبدو الرجوع إلى مفهوم البدو والحضر عند بن خلدون مجرد موقف تراثي تذكيري بمعلمة تاريخية قروسطية، لكن بقليل من الأناة والتبصر يعثر الباحث لا محالة على مفاهيم غاية في الأهمية. فابن خلدون يحدد أن اختلاف طبيعة الأرض من حيث الخصب والجذب هي التي حددت شكل العمران فأشكال الاجتماع وأنماط التعاون تختلف بحسب أنماط تحصيل الغذاء والكسب، فأهل الأرض الجدباء يقتصرون على الضروريات وهم مضطرون الى التنقل طلبا للعشب والماء، عكس أهل الأراضي الخصبة فإنهم يتوسعون في الأقوات والملابس والتأنق وكلما زاد استقرارهم زاد توسعهم، وإذن فالعمران يتدرج من البسيط إلى المعقد بحسب خصوبة الأرض وجدبها، وهنا يتحدد مفهومين للاجتماع :الأول ينعت أصحابه بالبدو والثاني ينعت أهله بالحضر.

أ ـ مفهوم البدو: البدو نوعان، بدو رحل وبدو مغلوبون لأهل الأمصار

ـ البدو الرحل: « وأهل البدو لتفردهم عن المجتمع وتوحشهم في الضواحي وبعدهم عن الحامية وأُنتباذهم عن الأسوار والأبواب قائمون بالمدافعة عن أنفسهم لا يكلونها إلى سواهم ...ويتفردون في القفر والبيداء...قد صار لهم البأس خلقا والشجاعة سجية"... والبدو هم ساكنو البادية التي هي في اصطلاح القدماء الصحراء والأرض القاحلة . إن هذه الظروف القاسية التي استرسل صاحب المقدمة بأسلوبه الرائع انعكست بالضرورة على طباع أهلها وأخلاقهم ونمط سلوكهم فطباعهم تنفر من العمران ومناقضة له و"أرزاقهم

في رماحهم" بسبب جدب الأرض فهم يمدون أيديهم إلى ما في أيدي الناس. بيد أن بن خلدون وهو يقدم لنا صورة عن البدو فهو كان موضوعيا إلى أقصى درجة، فبالرغم مما نعتهم به من غلظة الطباع والجفاء والتوحش ... إلا انه قال عنهم " فهم أحسن حالا ، فألوانهم أصفى وأشكالهم أتم وأحسن وأخلاقهم ابعد عن الانحراف وأذهانهم اثقب في المعارف والإدراكات...فهم أقرب إلى الفطرة الأولى..." وسرعان ما تغلب صفاتهم الحميدة على طباعهم الذميمة من غلظة وجفاء و اخشيشان، خاصة إذا وجدوا من يعيدهم إلى فطرتهم الأولى"فإذا كان فيهم النبي أو الولي الذي يبعثهم على القيام بأمر الله، ويذهب عنهم مذمومات الأخلاق ويؤلف كلمتهم لإظهار الحق، ثم اجتماعهم وحصل لهم التغلب والملك".[6]

ـ بدو مرتبطون بالمدن : يقدم لنا صاحب المقدمة صنف آخر من البدو وهم الفلاحون من توقف إنتاجهم الزراعي على استعمال الآلات والأدوات وهي توجد بالحضر ومن اختصاص المدن، فهؤلاء اقرب إلى التحضر رغم أنهم لم يبلغوا درجة الترف والتفنن في العيش غير" أنهم إن لم يحصل لهم ملك" كانوا مغلوبين خاضعين وهنا يحدد لنا **ايف لاكوست** نوعين من البدو المستقرين الذين يدخلون تحت اسم "قبائل"

ـ قبائل خاضعة منقادة وضعيفة التلاحم وفاقدة للعصبية.

ـ قبائل قائدة مسيطرة شديدة الاندماج، بالتالي ذات عصبية فاعلة في التاريخ ومحركة للتطور المجتمعي، تستمر في إلحاق القبائل بها فإن هي تمكنت من تشكيل قوة تعادل أو تفوق قوة الدولة أو أدركتها في طور انحدارها تبادر للاستيلاء على الملك ثم الاستقرار بالمدينة. بيد أن قبائل قليلة من اتسمت بهذه الصفة بحسب **علي اومليل**. إذ الغالب هو أن الوضع الاجتماعي لهؤلاء النوع من البدو هو أشبه بوضع سكان المدن البعيدون عن الجاه والسلطة كما يقول الجابري.

ب ـ مفهوم الحضر : لكن كيف ينظر بن خلدون إلى الحضر؟ الحضارة كما يعرفها صاحب النص هي: "التفنن في الترف و استجادة أحواله، والكلف بالصنائع التي تؤنق من أصنافه وسائر فنونه.." وأهل الحضارة أيضا "يقعد أفرادها عن العمل ويفر أصحاب الأموال بأموالهم وتغادر القبائل أراضيها ومراعيها... و يكثر الهرج وينقسم أهل العاصمة على أنفسهم كل

---

[6] ـ ابن خلدون : **المقدمة** ، ج2، مرجع سابق، ص 465.

يتحزب ويتعصب لنفسه وقريبه..." وهذا الوصف هو الذي أدى بابن خلدون لان يقول كلمته الشهيرة : "الحضارة مفسدة للعمران. " وأهل الحضر القوا جنوبهم على مهاد الراحة والدعة وانغمسوا في النعيم والترف ووكلوا أمرهم في المدافعة عن أموالهم وأنفسهم إلى واليهم والحاكم الذي يسوسهم، ...وتنزلوا منزلة النساء والولدان الذين هم عيال على أبي مثواهم". "فالحضارة مقرونة بالملك، فهي من توابع الترف، والترف من توابع الثروة والنعيم، والثروة والنعيم من توابع الملك.[7]

يرى **فون كريمر** أن بن خلدون كان ذا "نزعة تشاؤمية " بسبب أن الحضارة لفظته الى إحدى القلاع البدوية، وهو ما اثر بالضرورة في تحليلاته وتفسيراته لمفهوم الحضر والحضارة عموما .بينما يرى **لاكوست** وهو من أهم الدارسين للمقدمة ان بن خلدون انتقد سكان المدن لكونهم عجزوا عن تشكيل " طبقة بورجوازية" تمكن من مقاومة هجمات "الارستقراطية القبلية". ومن جانبه يرى **محمد عزيز الحبابي** أن "مؤاخذات وتهجمات" بن خلدون على الحضر إنما هي استثارة لهم للنهوض من سباتهم كي يحققوا حلمه بتأسيس دولة قوية أمام تحرشات البدو. لكن د الجابري يعتبر أن بن خلدون لم "ينتقد "ولم "يتحامل" وإنما "حلل" ظروفا اجتماعية وسياسية خاصة.

وما يمكن أن نخلص إليه هو أن الانتقال من البداوة إلى الحضارة هو بالضرورة عند صاحب المقدمة انتقال من الخشونة إلى الترف ومن مجتمع شظف العيش والحرمان الذي هو أساس التضامن من اجل البقاء إلى مجتمع تطغى عليه صفة الفردانية والنزوع نحو الجاه والمال، وبحسب د المختار الهراس هو "انتقال من المصلحة المشتركة إلى النزعة الفردية "إن التمييز بين البدو والحضر في المقدمة هو في اختلاف طرق الكسب ، المعيشة، الطباع، والسلوك وكذا تأثير المناخ والخصب والجدب. و كل إيغال في التفنن في العيش والبذخ والترف هو استدراج بالضرورة نحو فساد العمران ونهايته، فهو نعي مقدم لحضارة الاستهلاك و ختاما شدد **ريمي لوفو** على أن "المخزن" استفاد كثيرا من المعرفة السوسيولوجية الكولونيالية التي جعلته يتحكم في البادية المغربية، إذ جعل الفلاح - صانع التغيير عند بن خلدون عند كل فساد للعمران- حاميا لعرشه وبعيدا عن كل الصراعات السياسية ، و لا يخفى أن ريمي لوفو يلتقي أحيانا مع بن خلدون فيما يتصل بتبعية البادية للحضر أو تبعية رجل

[7] - ابن خلدون : **المقدمة** ، ج2، مرجع سابق، ص 492.

البادية لرجل السلطة. يتساءل د المختار الهراس عن جدوائية الأسئلة "ما قبل النظام الاستعماري"؟ طارحا سؤالا آخر وهو: هل خرجت مجتمعات المغرب العربي حاليا عن "الزمن الخلدوني"؟

وختاما نتساءل بدورنا إلى أي مدى يمكن التمسك بمفهومي البدو والحضر الخلدونيين في زمن تتلاشى فيه الحدود بين ما هو حضري وبدوي؟ ألا توجد كيانات ومجتمعات موسومة بعلامات أخرى غير ما هو حضر وبدو؟ أين تنتهي كل من البادية والمدينة؟

5- العصبية والنبوة

إن العصبية في فكر ابن خلدون هي النعرة على ذوي القربى وأهل الأرحام، كما أنها الالتحام بالنسب أو ما في معناه، لأن النسب أحد مصادر العصبية، فأهل النسب الواحد يشعرون بالاتصال، مما يدفعهم إلى التناصر والتعاطف، ومن مصادر العصبية أيضا المصاهرة والولاء والحل، مما جعل الدعوة الدينية بحاجة ماسة إلى العصبية، لأنها هي الوقود الذي استخدمه الرسل والأنبياء لنصرتهم. لقد كانت غاية العصبية الملك.